مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة - إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

تصدر سنويا عن

كلية الدعوة الإسلامية

العددان التاسع والعشرون والثلاثون

لسنة 1436 – 1437 الهجرية الموافق: 2015 – 2016 الميلادية

كلمة الشّيخ
عبد اللّطيف أحمد الشّويرف
بمناسبة تكريمه في اليوم العالميّ للّغة العربيّة

بمُناسبة اليوم العالميّ للّغة العربيّة، نظّمتْ كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة بتاريخ: 27/ 12/ 2016م احتفالاً كرّمتْ فيه فضيلة الشّيخ عبد اللّطيف أحمد الشُّوَيْرِف، عرفاناً منها بجهوده المُثمرة في حمل رسالة كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة في مجال تعليم اللُّغة العربيّة، وتقديراً منها لإسهاماته المتواصلة في إثراء البحوث والدّراسات الّتي زوّدت مكتبة اللُّغة العربيّة وآدابها بباقة من الكتب القيّمة الّتي فتحت أبواب النّبوغ والإبداع في فُروع اللُّغة العربيّة أمام عُشّاقها.

وقد أَلْقَى فضيلة الشّيخ عبد اللّطيف أحمد الشُّوَيْرِف الكلمة التالية:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على سيّدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أيّها الجمع الكريم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اليوم العالميّ الّذي خصّصته هيئة الأُمم المتّحدة للّغة العربيّة، هو تعبير من المُجتمع الدُّوليّ عن تقديره للُغتنا واحترامه لها، وإقرارٌ رسميّ منه بأنّها إحدى

اللُّغات العالميّة الحيّة الّتي تضرب بجذورها في أعماق التّاريخ الإنسانيّ، وقدّمت إلى البشريّة من عطاء كنوزها الثَّرَّة وخزائنها الغنيّة، ما هيّأ لها مكاناً متميّزاً بين لُغات الحضارات، وحظاً وافراً في مجال التّطوّر العلميّ وميدان التّقدّم الأدبيّ، فهي بذلك جديرة بكلّ معاني الجدارة بالتّكريم والتّبجيل، ومستحقّة لأن يُذَكَّرَ النّاسُ كافّةً في يومها المُخصّص لها بعراقة محتدها، وأصالة مَنْبتها، وسبقها بالفضل والشّرف.

وإذا كانت هيئة الأُمم المتّحدة، قد خصّصت يوماً واحداً من أيّام السّنة لتكريم لغتنا -وهي مشكورة على هذه اللّفتة الكريمة-، فإنّ الواجب علينا نحن أبناءَ هذه اللُّغة المجيدة، أن نخصّص لها كلّ أيام السَّنة: نَذْكُرُها ونُذَكِّر بها ولا ننساها، ونُحييها ونُرمّم ما صدّعه الزّمن من بعض جوانبها ولا نُميتها، ونُيسّر ما عقّده النُّحاة من قواعدها وضوابطها، وننظّف مساحتها ممّا تراكم عليها من غبار إهمالها، ونحثّ أهلها على تعلّمها وإتقانها وإصلاح ما فسد على ألسنتهم منها، ونُشجّعهم على حبّها من قلوبهم الحبّ الصّادق وتعلّقهم بها التّعلّق الأمين.

ونحن مهما فعلنا من البرّ بهذه اللُّغة العربيّة، ومهما بذلنا من الجهود للوفاء بحقوقها، فإنّنا لا نقضي سوى جزء من دَينها المُعلّق بأعناقنا، ولا نقوم إلّا بشيء من إبراء ذمّتنا نحوها، لأنّها الأمّ الرّؤوم الّتي أرضعتنا بلُبانها، وغذّت عقولنا بغزير ثقافتها، وربّت نفوسنا على شِيَم قِيَمها وأخلاقها، وهذّبت أذواقنا بجمال بلاغتها وسحر بيانها.

إنّها رئتنا الّتي نتنفّس بها هواء الحياة الطّبيعيّ النّقيّ، ولا تنفّس بلا رئة، وهي قلبنا الّذي يَخْفِق بالحركة ويَنْبِض بالحياة، ولا جسم بلا قلب.

إنّها بطاقةُ التّعريف الرّسميّةُ بهُويَّتنا، والمرآة المعاكسة لملامح شخصيّتنا، والرّابطة المتينة الّتي تَشُدّ كِياننا، والوعاء الحافظ لتراثنا وأمجادنا، والجامعة لشتاتنا المُبعثر وصفّنا الممزّق، والمُحقّقة لوحدتنا المرجوّة ووجودنا المحترم، وهي باختصار ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

وهذه اللُّغة الشّريفة على ما حَبَاها الله من فضائل، واجتبى لها من خصائص، مَرِنة تتكيّف مع مُتطلّبات كلّ عصر، ومُتفتّحة على آفاق التّطوّر والنُّموّ، ورحبة الصّدر لا تضيق بأيّ تقدّم صالح، ولا ترفض أيّ جديد نافع.

وهي بهذه المُرونة وهذا التّفتّح وهذه الرّحابة، قادرة على التّحليق في سماء الحضارة الإنسانيّة المعاصرة، وليست كسيرة القوادم ولا مَهيضة الجناح، ومُهيَّأة لأن تتبوّأ مكان الصّدارة بين الكِبار، وليست عاجزة عن السّباق في ميدان التّنافس الدّولي، واقتحام حَلْبة الصّراع العالميّ.

وممّا يثير الاستغراب والعجب العُجاب، والحسرة والأسى في الوقت نفسه، أنّ الغرباء عن اللُّغة العربيّة يقدرونها قَدْرها، ويُخصّصون لها يوماً من أيّام السَّنة لتكريمها، وأهلُها المُنتسبون إليها بآصرة الرّحِم والدّم، يَعُقّونها، وينْقُضُون غَزْلَها، ويَنْقُصونها من أطرافها، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من برّها وعهدها، فقد أضعفوها في ألسنتهم عمداً وهي القويّة، وتركوا التّقيّد بقواعدها وضوابطها جهلاً وهي الأصيلة، وشوّهوا رُواءها وأطفأوا بَرِيقها، وهي الحسناء المُشرقة الجميلة.

إنّها لجريمة مُنكَرة مُمعنة في الإنكار، أن تَؤول لغتنا العربيّة العزيزة على أيدي أهلها إلى وضعها الحاليّ المتدنّي المُزري، الّذي تشتدّ وطأتُه وتَسْتَفْحِل عِلَلُه يوماً بعد يوم، فهذه اللّهجات العامّيّة تزحف زحفاً ساحقاً مُدمّراً على اللُّغة الفُصحى، وتُجبرها قسراً وقهراً على التّراجع عن وظيفتها الّتي خُلِقت لها، والتّخلّي عن المواقع الّتي لا تُملأ بغيرها.

لقد عمّ بَلاء اللّهجات العامّيّة مُعظم أجهزة الإعلام العربيّة المكتوبة والمسموعة والمرئيّة، وأصبحنا نقرأ باللّهجة المحلّيّة افتتاحيّات صحف لها تاريخ، ونسمع أكثر برامج الإذاعات المسموعة والمرئيّة وحواراتها تدور باللّهجات العاميّة، وتكاد هذه اللّهجات تكون هي اللُّغة الرّسميّة في خطابات الحكّام وكِبار المسؤولين والموظّفين، وفي النّقاشات والأسئلة والرُّدود والتعليقات وغيرها.

وأصابت عَدْوى انتشار اللّهجات العاميّة وطغيانها على الفصحى رحاب

التّعليم الّذي يُفترض فيه أن يكون ذا مَناعة تُحَصِّنه من هذا الوباء، وقلعةً تحمي اللُّغة العربيّة الفُصحى ممّا يُحاك لها من المحق والتدمير، ولم تسلم من هذه الآفة اللّعينة الجامعة الّتي تُمَثّل المرحلة التّعليميّة المُتقدّمة، والمُؤهلة لتخريج العلماء الضّالعين في لغتهم العربيّة، والمعقود عليهم الأمل في الحِفاظ على ثوابتها وأُصولها، والعاملين على نشرها وتنميتها وتيسير تعلّمها، وتخليصها ممّا شابها من تعقيد ومعوّقات، فهذه الجامعة تُدَرَّس فيها علوم اللُّغة العربيّة من نحو وصرف وبلاغة وأدب باللّهجة الدّارجة، ويتولّاها دكاترة مُتخصّصون في اللُّغة العربيّة، يُوجّهون طعناتهم القاتلة إلى لغتهم الفصحى وهم أقرب النّاس إليها صِلةً وأجدرهم بالأمانة عليها.

والدَّعوة إلى تبنّي اللّهجات العاميّة الدّارجة لُغةً رسميّةً محلّ الفصحى، انطلق شرُّها بمصر في أوائل القرن العشرين الماضي، وتولّى كِبْرها ووِزْرَها مسيحيّون صليبيّون حاقدون على الإسلام ولُغة الإسلام، فشنّوا حملات عنيفة على اللُّغة الأُمّ الفصحى، ورموها ظلماً وتعسّفاً وتآمُراً بالجمود والتّخلُّف والقصور عن مواكبة العصر، وصُعوبة تعلّمها، وهو ما يجعلها عقيمة سقيمة غير صالحة لأن تكون لُغة للعلم، ولا وسيلةً للنهضة واللّحاق بالعالم المتقدّم، وأَوْحَوْا إلى المصريّين بأنهم لا سبيل لهم إلى الرّقيّ والأخذ بأسباب الحضارة الغربيّة المُعاصرة إلّا بجعل لهجتهم العامّيّة لُغة رسميّة تُدَرّس بها العلوم الحديثة، وتُستعمل في التّخاطب والكتابة والأدب، ويودّعون الفصحى ويركنونها في متحف التّاريخ القديم.

ولم يستجب لهذه الدّعوة الحاقدة المسمومة إلّا شرذمة قليلة من المصريّين ممّن تلقّوا ثقافتهم من موائد الغرب وتأثّروا بأفكارهم وموروثاتهم، وإلّا مجلّة "المقتطف" الّتي يملكها مسيحيّ.

وتصدّى لهذه الدّعوة بعض العُلماء الغَيارى على لُغتهم من مسلمين ومسيحيّين، ففنّدوا حُجج الدّعاة الصّليبيّين الواهية، وردّوا بالمنطق والدّليل القويّ افتراءاتهم واتّهاماتهم للّغة الفصحى، وبيّنوا عَجْز اللّهجة العامّيّة عن أن

تكون لُغة العلم والأدب، فارتدّ بذلك سهم الصّليبيّين إلى نحورهم، وتوّلوا على أعقابهم خاسئين مدحُورين.

أمّا الدّعوة إلى تبنّي اللّهجات العامّيّة على حساب الفصحى، فهي تصدر في الوقت الحاضر من أهل اللُّغة لا من أعدائها، وينشرونها في هدوء وصمت بلا ضجّة ولا صخب، ويفرضونها فرضاً على الواقع المعيش ويطبّقونها تطبيقاً عمليّاً يتمدّد براحة تامّة ويكتسح المواقع يوماً بعد يوم، ولا تجد هذه الهجمة من يقف في طريقها، أو يعترض تقدّمها واكتساحها، إلّا من أصوات مخلصة بين الحين والآخر، سرعان ما تتلاشى وتذهب أدراج الرّياح، في غمرة الطّغيان الجارف والأمواج العاتية، ولا تصادف آذاناً صاغية ولا أقلّ اهتمام من الحكّام المسؤولين ولا من طبقة المثقفين، بل هم أوّل من ينفخون في اللّهجات الرّوح، ويدعمونها ويُهيّئون لها المزيد من التّمكّن والاستقرار في خطاباتهم وحواراتهم وكتاباتهم أيضاً.

وما تركته اللّهجات العامّيّة من حيّز ضيّق للّغة العربيّة، هو نصيب -مع ضيقه- مبتور وكسيح مقطوع النّسب إلى الفصحى، فمعظم الّذين يتكلمون بهذا النّصيب من أدباء ومثقّفين وإعلاميّين وكبار رجال القضاء والمسؤولين، يكسرون عظام اللُّغة العربيّة كسراً، ويطعنونها بخناجر لحنهم الفاحش طعناً، ويَسْلُبُونها قواعدها الّتي تضبطها وتيسّر فهمها وتكسوها حلّة البهاء والجمال، وحتّى سمعنا من «يجرّ بقال ويرفع بعلى»، ويجهل المبادئ الأوّليّة للّغة يتلقّاها تلميذ المرحلة الابتدائيّة، وأصبح من النّادر أن نسمع مُتحدّثاً يخلو حديثه من اللّحن والأخطاء.

والضّعف اللُّغويّ الشّديد الّذي عمّ وطمّ، له آثار سلبيّة غاية في السوء، ونتائج بالغة الضّرر على مستقبل الأمّة، من ذلك أنّ وسائل الإعلام المُوغلة في الجهل بقواعد اللُّغة، وتوجّه إلى اللُّغة ضَرباتها المُوجعة وطعناتها المسمومة على مدار السّاعة، تنقل إلى قارئيها أو إلى مُستمعيها ومشاهديها ضعفها وعيوبها وفسادها، وتربّي أذواقهم ومَداركهم على لحنها الفاحش ونطقها الرّديء وأساليبها الرّكيكة، فيتحوّل الإعلام بذلك إلى مَعاول هدم للنّفوس، وأدوات

تخريب وتحطيم، بدلاً من أن يكون -كما هي وظيفته الأساسيّة- وسيلة تعليم وتثقيف وتوجيه سديد وتوعية وتهذيب.

وإذا شَاع الضّعف اللُّغويّ بين أفراد الشّعب، تعسّر عليهم التّفاهم بها، ووقعوا في كثير من اللّبس والغُموض والفَوضى في إدراك معاني ما يقرأون أو يسمعون، وذلك لعدم معرفتهم بقواعد اللُّغة الّتي تضبطها وتُحكم مدلولاتها، وتُساعد على توحيد مفهومات كلامها، وتمنع من الخلط والحَيْرة والارتباك.

ونحن نعلم أنّ سبب وضع علم النّحو على يد أبي الأسود الدّؤليّ، كان سُوءَ فهمٍ لكلام لحنت فيه ابنته، وخرجت به عن المألوف من كلام العرب، إذ قالت له ابنته: ما أحسنُ السّماء (برفع لفظ أحسن)، فقال: نجومُها، فقالت: ما أردتُ الاستفهام، ولكنّي أردتُ التّعجُّب، فقال: إذن، افتحي فاكِ، أي قولي: ما أحسنَ السّماءَ (بنصب لفظ أحسنَ)، فأبو الأسود فهم المعنى على مُقتضى كلام العرب وما يدلّ عليه ظاهر الإعراب، وهو غرض لم تقصده ابنته لضعفها في اللُّغة، فكان سُوء الفهم بين الطّرفين بسبب وقوع الخطأ.

والّذين يشكُّون ضعفاً في اللُّغة العربيّة، يشكُون في الوقت نفسه ضعفاً فكريّاً، وفقراً ثقافيّاً؛ لأن اللُّغة الصّحيحة هي مفتاح العلم، ووسيلة تغذية العقول بالثّقافة، وأداة توسيع آفاق الفكر على كنوز المعرفة.

وما نُلاحظه اليوم من ضآلة الزّاد الثّقافيّ لدى شبابنا العربيّ عامّة، وجهلهم بتاريخ أمّتهم وأمجادها وعطاء حضارتها وعبقريّة عُلمائها وسِيَر أبطالها، هو نتيجة طبيعيّة لضعفهم اللُّغويّ.

والفراغ الفكريّ والثّقافيّ لشبابنا، يُهيّئ الفُرصة السّانحة لملئه بالكلمات والمصطلحات الأجنبيّة الوافدة، وشَغْله بالأفكار الغربيّة المستوردة، وهذا الغزو الثّقافيّ الخارجيّ، يستعمر الأُمّة من داخلها وأعماقها، وهو استعمار أشدّ فتكاً وأفدح خطراً من الاستعمار العسكريّ؛ لأنّه يُجرّد الأُمّة من أصالتها واستغلال شخصيّتها، ويجعلها مسخاً ذليلاً يدور في فلك الغازي حيثما دار، ويفقدها الشّعور بالكرامة والعزّة واحترام الذّات.

واللُّغة العربيّة مُرتبطة بالإسلام ارتباطاً عُضويّاً وثيقاً لا تنفصم عُراه، فالقرآن الكريم نَزَل بلسان عربيّ مبين، ورسول الإسلام محمّد عربيّ قُحّ أفصح من نَطَقَ بالضّاد وأبلغُهم، وأوتيَ جوامع الكَلِم، ولا يُمكن فَهْم القُرآن والسُّنَّة وهما مصدر التّشريع الإسلاميّ إلّا بإتقان اللُّغة العربيّة، والتّمكُّن من معرفة أسرارها وخصائص أساليبها، وتفريطُ الأُمّة الإسلاميّة في حفظ اللُّغة العربيّة والعناية اللّازمة بشأنها، هو تفريط في أمر من أمور الدّين، وتقصير في واجب محتّم تسأل عنه الأُمّة وتُحاسبُ عليه حساباً عسيراً؛ لأنّ ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب، وقد رُويَ عن عمر بن الخطّاب ﷺ قوله: «تعلّموا العربيّة فإنّها من دينكم». ومن هنا كان أسباب انحراف الفِرَق الضّالّة، وجُنوحهم إلى الغلوّ والتّطرّف، جهلهم باللُّغة العربيّة وأُصولها الثّابتة وطُرُق تعبيرها، فحمّلوا نُصُوص القُرآن والسّنّة ما لا تحتمله من التأويلات المُتعسّفة والتّخريجات المتكلّفة، وأرغَمُوها بالعتوّ في لَيّ أعناقها على مُوافقة عقائدهم الفاسدة، وتأييد مَقولاتهم المُنحرفة.

قال ابن جنّي في كتابه **الخصائص**: «إنّ أكثر من ضلّ من أهل الشّريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطّريقة المثلى إليها، فإنّما استهواه واستخفّ حلمَه، ضعفُه في هذه اللُّغة الكريمة الشّريفة...».

وقال: «لو كان لهم أُنسٌ بهذه اللُّغة، أو تصرّف فيها، أو مُزاولة لها، لحمتهم السّعادةُ بها ما أصارتْهم الشِّقوةُ إليه بالبُعد عنها... ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ» فسمّى اللّحن ضلالاً. وقال عليه الصّلاة والسّلام: «رَحِم الله امرأً أصلح من لسانه»، وذلك لما علمه ﷺ ممّا يعقبه الجهل لذلك من ضدّ السّداد وزيغ الاعتقاد». ورُوِيَ عن الخليل بن أحمد الفراهيديّ قوله: «إنّ أكثر من تَزَنْدَق بالعراق لجهلهم بالعربيّة».

هذا، وعلى الرَّغْم من تعقُّد مُشكلة اللُّغة العربيّة عند أهلها في الوقت الحاضر، وضرورة الهجمات الشّرسة الّتي تستهدفها وتحاول اقتلاعها من جُذورها، فإنّ الأمل في إنقاذها من وضعها الحاليّ المُزري، يبقى حيّاً في نفوس

الغَيَارى والمخلصين لقضيّتها، وذلك بالعمل الجدّيّ الفعّال، والعزم القويّ الأكيد، على تَوْعية الأُمّة بضرورة الحِفاظ على لُغتها، وحِمايتها من عوامل التّفكّك والانحلال، وحثّهم على تعلّمها وإتقان أُصولها وثوابتها، وتيسير هذا التعلّم بتخليصها ممّا تراكم عليها من تعقيدات النُّحاة وعِلَلهم وتحكيم نظريّة العامل، حتّى تعود إلى هذه اللُّغة العظيمة الشّريفة عافيتها، وتسترجع مكانتها اللّائقة بها، مُؤيَّدة قراراتُ إحيائها بالموقف السّياسيّ والتّشريعات الملزمة، فإنّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أمّا بعد:

فإنّ الحديث عن هُموم اللُّغة العربيّة في الوقت الحاضر، يجب ألّا يَصْرفني عن واجب تقديم الشّكر الجزيل والامتنان العظيم، إلى كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة الموقّرة على تكريمها الّذي أَوْلَتْني إيّاه، وطوّقت بشرفه عُنُقي، في مناسبة اليوم العالميّ للّغة العربيّة.

إنّ هذا التّكريم، لأَعتزّ به اعتزازاً كبيراً، ويقع من نفسي موقعاً محبَّباً خاصّاً، لأنّه كان من مُؤسّسة علميّة شامخة أثيرة على قلبي قريبة إلى نفسي، وأتشرّف بالانتساب إليها، وأعدّ نفسي واحداً من أسرتها.

وأنا لا أدّعي الانتساب إلى هذه الكلّيّة ادّعاءً:

فأنا -أوّلاً- من المُؤسّسين لها، والمُشاركين في إعداد نظامها الأساسيّ، وممّن اختاروا المجموعة الأُولى من طُلّابها، وممّن حضروا ساعة ميلادها السّعيد في مقرّ جمعية الدّعوة الإسلاميّة الأوّل بميدان الجزائر طرابلس.

وأنا -ثانياً- ممّن حظوا بالتّدريس فيها على امتداد خمسة عشر عاماً، وكانت الكلّيّة الوحيدة الّتي سعدتُ بالتّدريس الجامعيّ فيها، فلها بذلك عليّ فضل لا أنساه لها أبداً.

وأنا -ثالثاً- ممّن أسهموا في تأليف الكتب الدّراسيّة لها، وذلك بتأليفي الأجزاء الأربعة لكتابي ''التّدريبات اللُّغويّة'' الّذي أردتُ منه أن يكون تجديداً

للدّرس اللُّغويّ الجامعيّ، ونال بفضل الله القَبول والاستحسان في داخل ليبيا وخارجها.

وإنّي لأسأل الله العليّ القدير أن يجعلني عند حسن ظنّ الّذين أحسنوا الظّنّ بي، وأن يُوفّقني لردّ جميل من أَسْدوا الجميل لي، وذلك بِبَذل أقصى ما في وسعي وطاقتي لخدمة لغتنا العربيّة العزيزة والدّفاع عنها، ما بقيَ لي من أيّام عمري، وعلى قَدر ما يمنّ الله به عليّ من صحّة وعافية، وعلى الله قصد السّبيل.

أقول قَوْلي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.